سورة العلق

مكية وهي عشرون آية مع البسملة وهي ركوع واحد

هذه السورة مكية بلا خلاف (فتح البيان). وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِن الوَحي الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النوم، وَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ؛ فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءَ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ- وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فِيهِ فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. قَالَ: فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ. فَقَالَ يَا خَدِيجَةُ، مَالِي، فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ؛ قَالَ: وَقَدْ خَشِيتُ عَلَيَّ. فَقَالَتْ لَهُ: كَلاّ، أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حتى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، فَكَتَبَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنْ الإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ- فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: أَيْ ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِن ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ وَرَقَةُ: ابْنَ أَخي مَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا رَأَى. فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عيسى عليه السلام. يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا

أَكُونَ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلاّ عُودِيَ. وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ. وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيمَا بَلَغَنَا حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ نَفْسَهُ مِنْهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا. فَيُسْكِنُ ذَلِكَ جَأْشَهُ وَتَقَرُّ نَفْسُهُ عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلامُ، فَيَرْجِعُ. فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتَرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ. فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري.

هذه الرواية عن بدء الوحي وردت في مسند أحمد بن حنبل، كما أن الإمام البخاري قد نقلها في صحيحه في أول كتابه في باب كيف كان بدء الوحي لرسول الله ﷺ، كذلك ذكره البخاري في كتاب التعبير، ولكن بين رواية البخاري ورواية أحمد فروقًا، هي:

الفرق الأوّلُ: أنه قد ورد في مسند أحمد أن خديجة رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ: وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، بينما ورد مكانه في البخاري في باب بدء الوحي: وتكسب المعدوم، أي تكسب المحاسن المعدومة من الدنيا، بمعنى أنك تتحلى بأخلاق فاضلة لا يتحلى بها أهل الدنيا.

والفرق الثاني: أن البخاري لم يذكر في باب بدء الوحي أن ورقة بن نوفل كان يكتب الكتاب العربي، أي أن ورقة بن نوفل كان يترجم الكتاب المقدس من العبرية إلى العربية، ويملي على أحدهم. علمًا أن اللفظ الأصلي هو: "كان يكتب"، ولكنه كان قد عَمِيَ، فلذا المراد من "كان يكتب".. أي يستكتب، أو أنه كان يكتب قبل أن يصاب بالعمى.

والفرق الثالث: أنه قد ورد في رواية مسند أحمد أن رسول الله ﷺ حاول إلقاء نفسه من قمة الجبل مرارا، ولكن البخاري لم يذكر هذا في باب كيف كان بدء الوحي.

غير أنه قد ذكر كل هذه الأمور في كتاب التعبير، حيث ورد هنالك: "وتصدُق الحديث"، وأيضًا "وكان يكتب الكتاب العربي" وأنه حاول ﷺ إلقاء نفسه من قمة الجبل.

والفرق الرابع: أنه ورد في رواية مسند أحمد: "هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عيسى عليه السلام"، بينما ورد في رواية البخاري "هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى موسى عليه السلام".

ورغم هذه الفروق البسيطة فإن الحديث هو هو في المصدرين، وبناءً على هذا الحديث قال الشرّاح والمفسرون أن هذا هو أوّلُ وحي نزل على رسول الله ﷺ. فقال ابن كثير: "أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهن أوّلُ رحمة رحم الله بها العباد، وأولُ نعمة أنعم الله بها عليهم". (تفسير ابن كثير)

وأود أن أبين هنا -ضمنيًا- أن البعض يخطئ في فهم ما ذكر الله تعالى في القرآن من محاسن الأنبياء، فيظنون أنها خصوصياتهم التي كانوا يمتازون بها عن الجميع. وهذا ليس صحيحا، لأن من أساليب الكلام أنك إذا ذكرتَ ميزةً لشخص فلا يعني أنه قد سبق فيها العالَمَ كله، بل المراد أنه سبق في تلك الميزة أهل زمنه وأهل قومه وقبيلته. فمثلاً لا يقول ابن كثير هنا في وصف أولِ آيات نزلت على النبي ﷺ: "هن أول رحمة رحم الله بها على الأمة المحمدية"، بل قال: "هن أولُ رحمة رحم الله بها العباد، وأولُ نعمة أنعم الله بها عليهم"، مع أن الواقع أنه قد سبق أن أنزل الله تعالى قبل وحي القرآن كلامه على عيسى وأنزل الكتاب على موسى وأنزل صحفه على إبراهيم عليهم السلام. فالحق أن هذا التعبير هو مجرد أسلوب عام من أساليب الكلام، ويعرف المتكلم أن السامع ليس جاهلاً بل يدرك أنه يتحدث عن أهل هذا الزمن فقط، ولن يفهم من ذلك أنه يفضّل صاحب هذه الميزة على كل الناس من آدم إلى يوم القيامة. وبالمثل حين يذكر القرآن الكريم مزايا بعض الأنبياء فيجب أن ندرك أنه يتحدث عن تميُّزهم عن أهل عصرهم وليس عن أهل الدنيا كلهم، ومثال قول ابن كثير المذكور آنفا، حيث اعتبر نزول القرآن أول نعمة وأول رحمة على العباد، مع أنه قد سبق نزولَ القرآن ما جاء به موسى

وعيسى وإبراهيم من وحي الله تعالى للعباد، فابن كثير حين يقول إنها أول رحمة وأول نعمة نزلت للعباد، فإنما يقصد أنها أول نعمة وأول رحمة للأمة المحمدية.

ويقول ابن عباس: هي أوّلُ ما نزل من القرآن. كما يقول أبو موسى الأشعري: هذه أول سورة أُنزلتْ على محمد رسول الله ﷺ. وقد روي مثله عن عائشة رضي الله عنها. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن، ثم بعده ن والقلم، ثم المزمل ثم المدثر. (فتح البيان، والخازن)

وعن جَابِر بْن عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيّ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِه عن رسول الله ﷺ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِن السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءِ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ.. إِلَى قَوْلِهِ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ. (البخاري، بدء الوحي)

وبين هاتين الروايتين اختلاف في بادي الرأي، حيث قيل في الرواية السابقة المذكورة في تفسير "الخازن" أن أول ما نزل بعد سورة "اقرأْ" هو سورة "ن والقلم" ثم "المزمل" ثم "المدثر"، بينما يبدو من رواية البخاري أن أول ما نزل بعد "اقرأْ" هو سورة المدثر.

والحق أنه ليس ثمة اختلاف، وإنما نشأ هذا الظن لعدم فهم أمر هام. ذلك أن الناس يظنون عادة أنه بعد نزول قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فتر الوحي، مع أن رواية البخاري لا تقول أن فتور الوحي بدأ بعد سورة "اقرأْ" فورًا، إذ ورد فيها أن الوحي نزل على النبي ﷺ، ثم بعد فترة تُوفّيَ ورقة بن نوفل، ثم تذكر هذه الرواية فتور الوحي، ولكنها لا تذكر ما حدث بين الأمرين. ولما كانت قضية فترة الوحي قضية هامة فذكرها هذه الرواية، ولكن هذا لا يعني أن الوحي فتر بعد "اقرأْ" فورًا، بل يبدو أن الوحي قد نزل بعد (اقرأ) أيضًا، ثم فتر، وهذا هو الأقرب إلى العقل. ذلك أن قول الله تعالى لرسوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، لم يتضمن أي حكم، والسؤال: ما هو الحكم الذي أمر الله رسوله أن

يقرأه على الناس؟ فلفظ ﴿اقْرَأْ﴾ يدل بوضوح أن هناك أحكامًا كان على النبي ﷺ أن يقرأها على الناس، وكان من المفروض أن تنـــزل هذه الأحكام بعد سورة ﴿اقرأْ﴾ التي لم تتضمن أي أحكام، وبالفعل قد نزلت هذه الأحكام في السور التي نزلت بعد سورة ﴿اقرأْ﴾ وهي سورتا: ن والقلم، والمزمل، ثم فتر الوحي بعض الوقت، ثم بعد ذلك نزلت سورة المدثر.

وليكن معلوما أن النبي ﷺ لم يعن بقوله "ما أنا بقارئ" أنه ﷺ لا يستطيع قراءة كتاب، إذ لم يكن هناك كتاب عند وقوع الحادث. لا شك أنه قد ورد في رواية أنه كان بيد جبريل قطعة قماش مكتوب عليها بعض الكلام، ولكن لا تذكر تلك الرواية أنه قدّم ذلك القماش للرسول ﷺ وقال له: اقرأْ ما فيه، مع أنه قد ورد في تلك الرواية نفسها أن الرسول ﷺ سأل جبريلَ: وما أقرأُ؟ (الدر المنثور). فلو أن جبريل كان قد قدّم له ﷺ القماش قائلا له: اقرأْ، لما قال ﷺ: ماذا أقرأُ؟ فالحق أن النبي ﷺ لم يقل "ما أنا بقارئ" إلا تواضعًا. لقد خاف ﷺ وفكر ما إذا كان سيقدر على حمل مسؤولية النبوة على ما يرام أم لا. وهذا هو حال الأنبياء جميعًا إذ قد ورد في القرآن الكريم أن موسى عليه السلام لَمّا أمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون قال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾(القصص:٣٥).. أي إني أخاف ألا أستطيع التعبير جيدًا، فأقصّر في أداء واجبي. هذا ما يذكره القرآن عن هذا الحادث، أما التوراة فلا تذكر أخاه هارون، بل تقول إن الله تعالى لما عهد إلى موسى النبوة قالَ موسى: يا ربُّ! أَرْسِلْ أحداً غَيري (الخروج٤: ١٣) .. أي لستُ أهلاً لهذه المهمة، فاخترْ لها مَن تشاء غيري. فأرسل الله تعالى هارون مع موسى بالتماس منه، ولكنا نرى أنه لما ذهب موسى عليه السلام إلى الجبل أربعين يومًا لم يستطع هارون رعاية القوم على ما يرام، فوقعوا في الشرك وعبدوا العجل رغم نهيه إياهم (الأعراف:١٤٣-١٥١)، وهكذا أخبر الله موسى عليه السلام أن انتخابنا هو الصحيح. لقد انتخبتَ هارون، ولكن انظرْ كيف فشل في رعاية القوم.

باختصار، عندما يُعهَد أمر النبوة إلى إنسان عظيم فإنه يخاف ويتردد بطبيعة الحال مخافة أن يقصّر في القيام بواجبه. لقد كان عند رسول الله ﷺ حياء وانكسار

وخوفٌ نظرًا إلى عظمة المهمة، كما كان عنده إدراك بعظمة الله واستغنائه، فشدةُ الأدب والتعظيم مَنَعَه من أن يقول لله تعالى أنه لا يصلح لهذه المهمة فالأفضل أن يأمر بها غيره، فلذلك قال لجبريل على سبيل الاستغراب: "ما أنا بقارئ"، مع أنه لم يكن قد أُمِرَ بقراءة شيء في ذلك الوقت. الواقع أنه مجرد أسلوب أدبٍ جمٍّ اتبعه الرسول ﷺ للتعبير عن مشاعره. لقد أدرك أن الإنكار المباشر سيكون عصيانا لأمر الله تعالى، بل لو قال إنه ليس أهلاً لهذه المهمة لكان خلاف الأدب والتعظيم؟ فالطريق الذي اتبعه هو أنه قال: "ما أنا بقارئ"، أي لست من أهل العلم فماذا أستطيع فعله؟

والملاك نفسه قد أكد في النهاية أنه لم يُرِد من الرسول ﷺ القراءة، إنما أراد منه أن يردد وراءه ما يقول. علمًا أن مِن معاني القراءة ترديد الكلام أو قراءة شيء مكتوب، فلم يَعْنِ الملاك بقوله ﴿اقرأْ﴾ أن يقرأ النبي ﷺ كلاما مكتوبا، إنما أراد أن يردد النبي ﷺ وراءه ما يقوله، فلما ردد النبي ﷺ وراءه تلك الكلمات تحقّقَ هدف جبريل، فتركه وذهب.

إن بدء الوحي مسألة هامة، وكما قال ابن كثير عن أول ما نزل من آيات القرآن: "هن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم". فلا شك أن أُولى آيات هذه السورة ذات أهمية قصوى من حيث إنها بمنـــزلة البذرة والنواة للقرآن الكريم، فبعد نزولها نزل سائر القرآن. لا شك أن كل القرآن ذو أهمية كبرى، ولكن لقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أهميةٌ بالغة من حيث المشاعر والعواطف، حيث يصاب جسم الإنسان برعدة حين يفكر أن هذه هي الآيات التي عرّفني الله تعالى بها قرآنه. ومثال هذه الذكرى القرآنية كمثال صديقين يلتقيان بعد فترة فيتحدثان بشوق عن بداية صداقتهما، أو كمثال زوجين يتحدثان عن بداية زواجهما بشوق. فإذا كانت الأحداث المادية البسيطة تكتسب هذه الأهمية بحيث يستمتع المرء بذكراها، فما بالك بأهمية تلك الآيات وعظمتها التي بدأ الله بها آخرَ وحيه التشريعي الذي ستظل البشرية تهتدي به إلى يوم القيامة، والذي قد تحققت به الغاية من خلق الإنسان، والذي حظي به بقرب الله تعالى،

والذي كان همزة الوصل بين الخالق والمخلوق؟ فكما يتحدث الزوجان بشوق عن بداية زواجهما والصديقان عن بداية صداقتهما، كذلك فإن قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ كلمات إذا قرأها الإنسان رقص قلبه حبًا، ولمعت عيناه بريقا وهاجت مشاعره الراقدة، فيقول هذه هي الآيات التي تيسّر لي بها الوصال بربي، ووصل بها الإنسان بربه، وبدأ بها آخر مرحلة من العلاقة التي لا بد منها بين الخالق وعبده.

فثبت أن بدء الوحي حادث بالغ الأهمية يهيّج المشاعر ويحرّك العواطف، ولذلك كان هذا الحادث موضع عناية أعداء الإسلام بوجه خاص، حيث استدلّوا بهذه الآيات والأحداث التي وقعت عند نزولها استدلالاتٍ شتى نيلاً من الرسول ﷺ وتنقيصًا لوحيه. فمنهم من قال إن الوحي افتراء واختلاق، ومنهم من زعم أن حادث الوحي حالة مرض بدليل قول محمد "زَمِّلُوني زَمِّلُوني"، ومنهم من قال إنه يدل على مرض محمد وافترائه معًا. ثم اعترضوا على حادث الوحي نفسه محتجّين بقلق النبي ﷺ حينها، فقالوا: أكان محمد يشكّ في وحيه أم في كفاءته، أم كان يتهرب من طاعة الله تعالى؟ ثم طعنوا في نوعية حادث الوحي قائلين: هل كان حادثًا ماديا أم كان حلمًا رآه محمد؟

(The Life of Mahomet, by W. Muir P. 38, 44, 54, 56
A Comprehensive Commentary on The Quran, by Wherry p. 191, 259)

فكل واحد من أعداء الإسلام استنتج مِن حادث نزول الوحي الأول على الرسول ﷺ ما يحلو له. الواقع أن هدف الكُتّاب غير المسلمين من ذكر هذه الأمور ليس إلا إثارة أمر يمثّل هجومًا على القرآن الكريم، ولذلك قال بعضهم كان حادث الوحي الأول مشهدًا ما فوق الطبيعة رآه محمد، ولأن العقل الإنساني ليس قادرا على رؤية مشهد كهذا، فثبت أن عقله كان مختلا نتيجة الجنون، والعياذ بالله. ولكن بعضهم فكّروا أن بعض الناس قد لا يقبلون نظرية الجنون، بل يصدِّقون وقوع حادث كهذا فعلاً، مما سيؤكد مماثلة محمد بأنبياء بني إسرائيل في رؤية الملاك وسماع كلام الله تعالى – وهذا ما لا يطيقه هؤلاء المعارضون– فقالوا: لم يكن هذا

مشهدا ماديًا بل كان رؤيا رآها. لا شك أن هناك روايات في المصادر الإسلامية اعتبرت هذا الحادث رؤيا حيث ورد في سيرة ابن هشام: "حَتّى إذَا كَانَت اللّيْلَةُ التي أَكْرَمَهُ اللّهُ فِيهَا بِرِسَالَتِهِ وَرَحِمَ الْعِبَادَ بهَا، جَاءَهُ جبْرِيلُ عليه السلام بأَمْرِ الله تَعَالَى. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: فَجَاءَنِي جبْرِيلُ وَأَنَا نَائِمٌ بنَمَطٍ مِنْ دِيبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ قُلْت: مَا أَقْرَأُ؟ قَالَ فَغَطَّنِي به حتى ظَنَنْتُ أَنَّهُ المَوْتُ، ثُمّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ: قُلْت: مَا أَقْرَأُ؟ قَالَ فَغَطَّنِي بِهِ حَتّى ظَنَنْت أَنَّهُ الْمَوْتُ، ثُمّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ اقْرَأْ. قَالَ قُلْت: مَاذَا أَقْرَأُ؟ قَالَ فَغَطَّنِي بِهِ حَتّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ الْمَوْتُ، ثُمّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ اقْرَأْ. قَالَ فَقُلْت: مَاذَا أَقْرَأُ؟ مَا أَقُولُ ذَلِكَ إلّا افْتِدَاءً مِنْهُ أَنْ يَعُودَ لِي بِمِثْلِ مَا صَنَعَ بِي، فَقَالَ ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبّكَ الّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبّكَ الْأَكْرَمُ * الّذِي عَلّمَ بِالْقَلَمِ * عَلّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قَالَ فَقَرَأْتُهَا، ثُمّ انْتَهَى، فَانْصَرَفَ عَنّي وَهَبَبْتُ مِنْ نَوْمِي، فَكَأَنّمَا كُتِبَتْ في قلبي كِتَابًا." (سيرة ابن هشام: مبعث النبي ﷺ)

هذه الرواية تذكر النوم صراحة، وهؤلاء الخصوم يبنون على هذه الرواية معتبرين الحادث حلمًا رآه محمد ﷺ. ذلك أن التوراة تدّعي أن الإنسان يرى ملاك الله وجهًا لوجه فيبلّغه كلام الله، ولو أثبت هؤلاء أن محمدا لم ير أي ملاك، إنما كان هذا الحادث مجرد حلم رآه فلم تثبُت مشابهته ﷺ بأنبياء التوراة. لا شك أنه قد ورد في رواية البخاري ومسلم عن عائشة –رضي الله عنها– صراحةً أن رسول الله ﷺ رأى جبريل رأي العين، لكن لما كانت هذه الرواية خلاف أهدافهم فلم يـــأخذوا بها، بل بنوا على رواية ابن هشام، وقالوا إن محمدا لم ير في حراء أي ملاك وإنما رأى حلمًا، ولو سلّمنا جدلاً أنه رأى هذا الحلم فعلا، فليس بينه وبين أنبياء إسرائيل شبهٌ، إذ كانوا يرون ملائكة الله وجهًا لوجه، أما محمد فرأى مجرد حلم وليس الملائكة.

أما الذين ركزوا على تهمة اختلال عقل النبي ﷺ، فإنهم أهملوا رواية ابن هشام مستدلين برواية البخاري ومسند أحمد، التي تقول أن الرسول ﷺ رأى ملاكا. فيقول هؤلاء أن العقل الإنساني لا يمكن أن يرى مثل هذا المشهد، مما يدل على أن عقله (ﷺ)كان قد اختل والعياذ بالله.

وأيًا كانت نيّات الكُتّاب الغربيين، فأرى أن السبب الحقيقي لاختلافهم هنا أنهم لا يستوعبون حقيقة المشاهد الكشفية. لقد ابتعدوا عن الدين بعدًا كبيرًا، فلا يرون المشاهد الكشفية إلا نادرًا، بل لا يرون الأحلام إلا قليلا. لا شك أن من سنة الله أن يُري المنامات لكل شرائح الناس، ومع ذلك يوجد بين الغربيين مَن لم ير حلمًا واحدا في حياته كلها، ذلك أن هؤلاء يعملون وقت النهار، وبالليل يرقصون ثم ينامون بعد شرب الخمر وتناوُل المنوّمات، فلا يرون حتى تلك الأحلام التي قال عنها المسيح الموعود عليه السلام إن المومسات أيضًا يمكن أن يريْنها (حقيقة الوحي، الخزائن الروحانية المجلد ٢٢ ص ٥)، ذلك أن سكر الخمر يعطِّل عقول هؤلاء الغربيين تماما. فأرى سبب اختلافهم في هذه القضية راجع إلى عدم استيعابهم للمشاهد الكشفية، إذ لا خبرة لهم بهذا العلم فينخدعون. إنما الواقع -كما يعرف أهل التجربة- أن المرء يشعر في حالة الكشف بحالة من الغفوة بحيث يشعر أنه قد جُذب من هذا العالم إلى عالم آخر. إنه يرى حوله كل شيء، فهو يرى جدران البيت وأثاثه، ومع ذلك يشعر أنه قد أُخِذَ بعيدًا عن هذا العالم المادي، عند زوال هذه الحالة غير العادية يشعر أنه قد عاد إلى حواسه. ومثال هذه التجربة أنك حين تحرّك مؤشر المذياع من محطة إلى محطة تشعر في البداية وكأنك قد جُذبت من عالم إلى آخر، وعند زوال هذه الحالة تشعر فجأةً أنك قد رجعت من العالم الآخر إلى هذا العالم. والحق أنه لولا هذه الحالة في الكشف لم يدرك الإنسان ما إذا كان المشهد الذي رآه من الله تعالى أم من نسج خياله. فلأنها لا تكون حالة نوم كامل فيمكن القول إنه قد رأى هذا المشهد يقظةً، ولأنه يكون في هذه الحالة من اليقظة تحت تصرُّف معين فيمكن القول إنه قد رأى ما رأى وهو في حالة نوم. وإنني صاحبُ خبرة في هذا المجال، فلا أرى في هذا الحادث أية غرابة. فإن ما رآه الرسول ﷺ لم يكن مشهدًا ماديًّا، ولكن بما أن حواسه المادية كانت تعمل عندها أيضا، فيمكن أن نسمي حالته حالة يقظة. والحق أن الكشف يكون ما بين النوم واليقظة، ولذلك قال النبي ﷺ مرة: إني رأيت هذا المشهد وأنا يقظان، وقال مرة أخرى: إني رأيت هذا المشهد وأنا نائم. وأصحاب الكشوف الروحانية يستخدمون مثل هذه

التعبيرات دائما، فيقول أحدهم تارةً: فاستيقظتُ بعد رؤية هذا المشهد، وهو يعني أنه خرج من حالة الإغفاء إلى حالة عادية؛ وتارةً أخرى يقول: رأيت كذا وكذا وأنا يقظان، وهو يعني أن حواسه المادية أيضًا كانت تعمل حينها. فثبت أن لا اختلاف بين الأمرين، وإنما أخطأ الكُتّاب الأوروبيون لعدم فهم حقيقة الكشوف.

وأما ما ورد في رواية أحمد والبخاري بأن ما رآه النبي ﷺ هو رؤيا، فيمكن حلّ هذا الإشكال بطريق آخر، ذلك أنه لا يُذكَر لفظ المنام والرؤيا أحيانًا مع أن المقصود هو الرؤيا، كقول يوسف عليه السلام لأبيه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف:٥)، فإنه لم يذكر هنا لفظ حلم أو منام أو رؤيا، وإنما قال ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾، غير أن الآية التي تلتها تصرح أن يعقوب عليه السلام لما سمع قول يوسف قال له: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾. فترى أن المشهد يبدو ماديًا في الآية الأولى، ولكن الآية الأخرى أكدت أنها رؤيا. فثبت أن هذا من الأساليب البيانية في العربية، وليس في ذلك أي دليل على أي اختلاف في الحادث. الواقع أن اللغات تختلف من حيث التعابير، وتستخدم اللغة العربية لمثل هذه المشاهد كلمة (الرؤيا) التي تعني لغةً: الرؤية والمشاهدة، وتعني اصطلاحًا: المشهد الذي يراه المرء في المنام، ولكن اللغة الفارسية تستعمل للرؤيا كلمة (خواب) التي معناها النوم، وهذا الفرق يدل على فضل العربية أيضا، وقد استعمل القرآن الكريم كلمة الرؤيا بمعنى الحلم في كل مكان، تنبيهًا للناس إلى أن حالة اليقظة الحقيقية إنما هي تلك التي يكلّم فيها الإنسان ربه، وإنْ كان عندها –في الظاهر– في حالة نوم أو إغفاء. ولكن الفرس لم يكن عندهم هذه المهارة البيانية، فاستعملوا للرؤيا كلمة (خواب) التي معناها النوم.

إذن، فإذا كان النبي ﷺ قد قال في موضع إني استيقظت بعدها من النوم، وقال في موضع آخر: لقد رأيت هذا المشهد، فلا اختلاف في ذلك في الواقع، وإنما مثله كما قول يوسف لأبيه: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، فإنه لم يذكر هنا لفظ الرؤيا، ولكن يعقوب عليه السلام استعمل لنفس هذا المشهد كلمة الرؤيا التي تُطلق على مشهد يراه الإنسان في النوم. وبهذا المعنى

استعملت عائشة –رضي الله عنها– كلمة الرؤيا في قولها: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوحي الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، وَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ" (البخاري: باب كيف كان بدء الوحي)، حيث وردت هنا كلمة الرؤيا للمشاهد التي يراها الإنسان في النوم فقط. فثبت أن الاختلاف الذي يشير إليه الكُتّاب الغربيّون ليس باختلاف في الحقيقة، بل هو نتيجة لعدم فهم التعبيرات العربية. فإذا كان ما رآه الرسول ﷺ رؤيا فإننا على يقين أنه لم يكن من قبيل الرؤيا التي يراها الإنسان في حالة نوم كامل، ولذلك نجد عائشة –رضي الله عنها– فرّقت بين الحادثين، فمرة قالت: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِن الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ"، وعندما تحدثت عن أول وحي قرآني ظهر فيه جبريل قالت: "فَجاءه المَلَكُ". وهذا يعني أن المشهد الذي رآه النبي ﷺ في غار حراء لم يكن من قبيل ما يراه الإنسان في نوم عميق، بل كان كشفًا يراه الإنسان في حالة من الإغفاء.

وأما رواية ابن هشام فالنوم فيها لا يعني نومًا عميقا، بل نومَ كشفٍ، وأما قوله ﷺ: فاستيقظتُ بعد ذلك، فيعني زوال حالة الكشف عنه. إذن، فلا اختلاف بين ما رواه ابن هشام وبين ما ورد في البخاري ومسند أحمد، بل مفهومها واحد.

أما سؤالهم الثاني فهو: أَمَا كان الرسول ﷺ يشكّ في رؤياه هذه؟

واعلم أن الخصوم يبنون سؤالهم على الأمور التالية:

أ– رجوع الرسول ﷺ قلقًا إلى خديجة رضي الله عنها.

ب– قوله ﷺ لخديجة: لقد خشيتُ على نفسي.

ت– محاولته ﷺ لأن يهلك نفسه عندما فتر الوحي كما ورد في البخاري وأحمد.

نقول في الجواب: أن قلق النبي ﷺ وقوله: "لقد خشيت على نفسي" راجعٌ إلى أن كل إنسان عاقل إذا فُوِّضت إليه مهمة، قَلِقَ وخاف ألا يستطيع أداءها على ما يرام. أما الأحمق فإذا عُهدت إليه مهمة قال من فوره بدون أن يفكر في ضخامتها وعواقبها: ليس هناك أي مشكلة. هذا هو الفرق بين الكفء وغير الكفء. إن

الكفء يصاب بالقلق بشأن عمله، أما غير الكفء فلا يكون عنده أي إحساس بمسؤوليته. وفي رأيي أن المهمة التي أنيطت بالجنرال إسكندريا والجنرال مونتغمري واللورد مونت بونتن في هذه الحرب العالمية الأخيرة (الثانية) لو فُوّضت إلى ضابط هندي بسيط وقيل له: هل ستقود الجنود في هذه الحرب لَقال بدون تفكير: نعم، سأنجزها على أحسن وجه. أما هؤلاء القوم فعندما فُوضت إليهم هذه المهمة خافوا من عظم المسؤولية وقالوا لا ندري ما إذا كنا سنؤدي واجبنا على ما يرام أم لا. فخوفُ المرء عند تسلُّم مسؤولية دليلٌ على علمه الكامل، وليس على عدم كفاءته. إن قلق النبي ﷺ عند نزول الوحي وقلقه واضطرابه أمام خديجة إنما يدل على أنه كان يدرك عِظم المهمة. فعندما عهد الله تعالى إلى النبي ﷺ مهمة إصلاح العالم فكّر فورًا: لا أدري هل سأتمكن من إنجاز هذه المهمة الهائلة كما يريدها الله تعالى أم لا. إنّ المهمة التي أنيطت بالنبي ﷺ والتي فُصّلتْ في أول وحي هي كالآتي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. أي أن الله تعالى قال لرسوله الكريم: إن الذين يحملون الأقلام دائمًا، الذين قد اشتهروا بين الناس كعلماء كبار ويفخرون بتجارهم وسعة رؤيتهم العلمية، عليك أن تعلّمهم تلك العلوم التي لم تخطر ببالهم، وانفعهم بالمعارف التي لم تُذكَر في أي كتاب في العالم. والبديهي أنه إذا قيل لشخصٍ أُميٍّ: لقد ألف الناس كتبًا كثيرة، ولكن ثبت أن لا نفع فيها، ولم تقدر على هداية العالم، فقُمْ أيها الرجل، وعَلِّم الناس بأمرنا ما لم تستطع الكتب الضخمة أن تعلّمهم، أقول إذا قيل له ذلك فلا بد أن يرتجف خوفًا من هول هذه المهمة وصعوبتها. لا شك أن المجنون سيفرح بذلك ويقول: لا مشكلة في إنجازها، ولكن العاقل يخاف ويقول: كيف أقوم بهذه المهمة الصعبة؟ فالواقع أن قول النبي ﷺ: "قد خشيت على نفسي" دليلٌ ساطع على علمه الكامل. لذا نقول لمن يعزو ذلك إلى اختلال في عقل النبي ﷺ –والعياذ بالله– متى يصاب المجنون بالقلق والخوف؟ فإنك لو سألت المجنون: هل تقدر على فتح العالم كله، لأجابك من فوره: أي مشكلة في ذلك؟ ولكن الذي

يكون عنده إحساس بعظم مسؤوليته وأهميتها، والمستعد للتضحية في سبيلها، فإنه سيرتعد ويرتجف مخافة أن يفشل في مهمته لغفلة أو تقصير منه.

وفي تاريخ الإسلام مثال واضح على ذلك. فها هو سيدنا عمر ﷺ قلب العالم رأسًا على عقب في عهد خلافته الممتد ثماني سنوات●، وهزم الفرس والروم، وحما حدود الدولة الإسلامية من كل خطر برباط الجنود عليها، وخدم الإسلام والمسلمين خدمة تبقى خالدة إلى يوم القيامة، ولكن هل تعرف كيف كانت حالة عمر ﷺ بعد أن فرغ من إلقاء الهزيمة النكراء بالروم والفرس وتمزيق هاتين الإمبراطوريتين القويتين بهجمات متتالية بقيادة الجيوش الإسلامية، وبعد أن دوّى اسمُه في العالم كله حيث لم يملك حتى ألد أعداء الإسلام إلا الاعتراف بإنجازاته العظيمة الكثيرة؟ ورد في التاريخ أنه لما حان أجله كان يقول مرة بعد أخرى: "لا عليّ ولا لي" (الطبقات الكبرى لابن سعد).. أي ربِّ إني ضعيف خطّاء ولا أدري كم أخطأت وقصّرت في عملي، وإني نادم على أخطائي وخجول على تقصيراتي، ولا أرى أني أستحق أي جزاء على ما فعلت، فأتوسل إليك أن تحفظني من عذابك.

ما أدلَّ هذه المقولةَ على عظمة عمر ﷺ! لقد فوّض الله إليه مهمة، فأنجزها أروعَ إنجاز حتى لا يسع أعداء الإسلام الغربيين إلا الإقرار بذلك، ومع ذلك كان يخاف الله تعالى ويقول في نفسه صحيح أني قد قمت بهذه المهمة، ولكن ربما كان الله تعالى يريد مني أن أنجزها بأحسن مما فعلت، فلعل ما أراه إنجازا لها لا يكون كذلك عند الله تعالى! ولذلك نجده يقول عند وفاته مرة بعد أخرى رغم إنجازاته العظيمة: رب لا عليّ ولا لي، أي رب لا أريد منك أي مكافأة، بل أريد ألا تعاقبني لأني لم أنجز شيئا ولم أؤد هذه الخدمة كما ينبغي. كذلك لم يقلق الرسول ﷺ بعد نزول الوحي إلا لأنه فكّر أنه ربما لن يستطيع إنجاز هذه المهمة العظيمة الهائلة التي فوّضها الله إليه. فإن ما فعله الرسول ﷺ عند نزول الوحي لم يكن

● هكذا ورد في الأصل سهوًا، والصحيح عشر سنوات إذ كانت خلافته ﷺ من ١٣ – ٢٣ الهجرية. (المترجم)

بسبب الشك في وحي الله تعالى، بل سببُه يقينه الكامل بأن الله تعالى أعظمُ من أن تدرك العقول عظمته، وأنه ﷺ مهما ضحى في سبيل هذه المهمة فلا يدري هل أنجزها كما يريد الله تعالى أم لا. وخوف العبد من عظمة الله ليس جرمًا، بل هو من أعظم الحسنات ودليلٌ ساطع على خشيته المنقطعة النظير لله تعالى.

أما فيما يتعلق بمحاولة النبي ﷺ الانتحارَ، فأولاً: اعلمْ أن الأحاديث الأخرى لا تصدِّق ذلك. وثانيًا: لو سلّمْنا جدلاً بصحة ذلك، فإن من الواضح تمامًا أنه ﷺ فعل ذلك بعدما فَتَرَ الوحي. لو كان في قلبه أدنى شبهة أن الشيطان هو الذي قد نزل عليه –والعياذ بالله– أو أنه ليس كلام الله تعالى، فكان ينبغي أن يفكّر في الانتحار عند نزول الوحي عليه، ولكن الحديث يذكر أنه ﷺ أراد الانتحار بعدما فَتَر الوحي عنه، مما يبين أنه ﷺ خاف أن يكون الله تعالى قد سخط عليه لسبب ما، فترك الكلام معه و لم يُنْزِل عليه وحيه منذ فترة. لو كان ﷺ يشك في نوعية الوحي نفسه فكان ينبغي أن يفرح عند فتوره وانقطاعه عنه، ويقول: الحمد لله بأن قد دُفع البلاء عني. ولكن الروايات متفقة على أن النبي ﷺ أصيبَ بهذا القلق بعدما فتر الوحي عنه، مما يدل أنه لم يكن يشكّ في صدق الوحي النازل عليه، وإنما خاف أن يكون الله تعالى قد سخط عليه لسبب ما.

وأرى لزامًا عليّ أن أذكر هنا أنني قد قدّمتُ تأويلاً لحادث الانتحار لأَرُدّ على طعن الكتاب الغربيين في نبينا ﷺ، بيد أن هذا الحادث مذكور في الأحاديث الصحيحة، لذا لا يمكن إنكاره كليةً. بيد أني أرى أن الناس قد أخطأوا في فهمه فتعثّروا وسبّبوا العثار للآخرين. لقد ظنوا أنه حادث مادي وأن الرسول ﷺ حاول الانتحار فعلاً بإلقاء نفسه من شواهق الجبال، فكان جبريل يناديه ويمنعه من ذلك قائلا إنك رسول الله حقًا، فكان يمتنع ويرجع إلى بيته. الحق أنه ليس حادثًا ماديا، بل هو من الكشوف الروحانية. فكان ﷺ يرى في الكشف أنه يمشي فوق الجبال وأنه يريد إلقاء نفسه من فوقها، فكان الملاك يناديه وينهاه عن ذلك مؤكدًا له أنه رسول الله حقًا.

الواقع أن رسول الله ﷺ كان في تفكير مستمر فيما أنيطَ به من المهام فكان يقول في نفسه مرة بعد أخرى: كيف أؤدي هذه المهمة العظيمة الصعبة! لعلي أقصّر في أدائها فأثير غضب الله علي، فكان الله تعالى يكشف أفكاره عليه في حالة الكشف فكان يرى وكأنه على قمم الجبال ويريد إلقاء نفسه من فوقها، ولكن الملاك كان يناديه قائلا: يا محمد إنك رسول الله حقًا، وستنجح في مهمتك حتمًا، لأن الله هو الذي أقامك لهذا الهدف.

باختصار ليس هذا الحادث ماديًا عندي، بل هو كشْفٌ يصوّر أفكار النبي ﷺ وقلقه بصدد المهمة المناطة به. الواقع أن من رأى في الرؤيا أنه ألقى نفسه مِن فوق جبل وأنه قد سقط فعلاً، فتأويله أنه سيظهر له أمرٌ سيئ يدمّره، ولكنه لو رأى أنه سقط من الجبل و لم يمت، فتعبيره أنه قد ارتكب خطأً كبيرا، أو أنه سيقوم بعمل كبير، فتصيبه صدمة كبيرة، ولكنه لن يهلك. ومن رأى أنه على وشك أن يسقط من الجبل ولكن الملاك يُطَمْئنه، فتأويله أنه سيقوم بعمل عظيم فيه الهلاك في الظاهر، ولكنه لن يهلك بل سيكون النجاح حليفه.

وكما قلت لو اعتبرنا هذا الحادث ماديا فهو دليل على خشية الرسول لربه ﷻ، إذ لم يفعل ذلك عند نـــزول الوحي، بل عند انقطاعه، مما يدل دلالة واضحة أنه خاف أن يكون الله تعالى قد سخط عليه لبعض ما فعل فترك الكلام معه، لكن الحادث ليس ماديا بدليلِ ظهورِ الملاك للنبي ﷺ في كل مرة وتبشيره إياه بالنجاح. والدليل الثاني أن القرآن لم يذكر هذا الحدث مطلقا.

أما ما قال العدو بأن في قول النبي ﷺ لأهله: "زَمِّلوني زَمِّلوني" أي غطُّوني بسرعة دليلاً على إصابته ﷺ بنوبة الهستيريا، فلا شك أنه يدل على جهله بظاهرة وحي الله تعالى. الأمر الواقع الذي يعرفه أصحاب الخبرة في الوحي أنه يستولي على المرء وقت نزول الوحي من خشية الله ما يفكّ كل مفاصله ويهزّ كيانه، ذلك أنه مقام قربٍ ولا يعرف حال البلاط إلا أهل البلاط. فالحق أن ما حدث هو استيلاء خشية الله عليه ﷺ نتيجة قربه منه، وكيف يمكن أن يفهم هذه الحقيقة مَن لا خبرةَ له بالروحانية قطعًا، ومَن هو بعيد عن الله تعالى بُعْد المشرقين. ثم إننا نسأل هؤلاء

الطاعنين: هل المصاب بالجنون يُعرف بتغطية نفسه بالثياب؟ هل الثابت طبيًا أن مَن يغطّي نفسه بالثياب يكون مجنونًا؟ أو هل يسأل الطبيب أهلَ المريض: هل تغطونه بالثياب حين يرى مشهدا كذا؟ فثبت أن استدلال أعداء الإسلام من قوله ﷺ: "زَمِّلوني زَمِّلوني" على اختلال في عقله دليل على حمقهم وغبائهم. لا شك أن النبي ﷺ أصابه القلق عند نزول الوحي، ولكن هذا لم يكن دليلاً على إصابته بخلل روحاني أو عقلي أو مادي، بل كان دليلا على خشيته لله تعالى. لقد رأينا أن أحداثًا بسيطة تصيب الناس بالهلع حتى يتصببون عرقًا، فلو زجر أحدَهم المديرُ على خطأ أو سأله عن قضية، أصيبَ بالرعب وارتجفت فرائصه وتصبّبَ عرقًا. فإذا كان الإنسان يصاب بالرعب من مسؤولين دنيويين عاديين، فما بالك بتأثير عظمة الله وجلاله وجبروته في قلب الإنسان؟ فقوله ﷺ: "زملوني زملوني" دليل أن رعب وحي الله تعالى استولى على قلبه، فأراد أن يستلقي لبعض الوقت لتسترخي أعصابه وترتاح. ونسأل الذين يعتبرون هذا الحادث جنونا: من أين علموا أن تَغطّي المرءِ بالثياب علامة الجنون؟ لم نسمع قط أن طبيبا قال لأهل مريض وجد فيه آثار جنون: هل يتغطى هذا بالثياب؟ إذا كان يتغطى بها فهو مجنون حتما، وإلا فلا. فاستنتاج الخصوم مِن تغطّي النبي ﷺ بالثياب إصابته بالجنون –والعياذ بالله– لدليل على جنونهم هم.

ثم عليهم أن يروا ما إذا كانت تصرفات النبي ﷺ الأخرى تدل على الجنون؟ الواضح أن صاحب الكفاءات الخارقة يختلف حالاً عن الآخرين، فالذي عنده كفاءة رياضية خارقة يتميز عن ذوي الكفاءة الرياضية البسيطة، وصاحب المعرفة غير العادية بالتاريخ يمتاز عن ذوي المعرفة البسيطة بهذا العلم. والحال نفسه بالنسبة إلى الطب وغيره من العلوم. فأحيانًا يكون المرض بسيطًا في الظاهر فيعالجه الأطباء العاديون علاجا عاديا، ولكن الطبيب الحاذق يدرك بعلمه فورًا أن المرض خطير فيعالجه، أو أحيانًا يكون المرض بسيطا ويعتبره الأطباء العاديون شديدا، لكن الطبيب الحاذق يدرك فورا أن المرض بسيط فيتصرف بحسب ذلك. والحال نفسه بالنسبة إلى العلوم الأخرى، فالعالم العادي تظل معرفته بسيطة، ولكن العالم الفذّ في

مجاله يتوصل إلى أدق تفاصيل الأشياء ويخترع مخترعات جديدة. فالناس يتفاوتون كفاءاتٍ، فبعضهم ذو كفاءة عادية، وبعضهم ذو كفاءة خارقة، وكلاهما يمتاز عن الآخر تماما. ووجود كفاءات خارقة في أحد ليس دليلا على جنونه. فإذا امتاز المرء بكفاءات خارقة عن الآخرين فلا يمكن أن نرميه بالجنون، ومن فعل ذلك فكأنما ادعى أن كل التقدم في الدنيا منوط بالمجانين. أفلا يدل هذا على جنونه هو؟

والسؤال هنا: لماذا خلق الله تعالى العقل في الإنسان؟ إذا كان العقل لإنجاز عمل عظيم، فالذي يأتي بإنجاز عظيم يدل على ذكائه لا على جنونه. إذا كان المرء يختلف حالاً وكفاءةً عن الآخرين فعلينا أن نرى ما إذا كانت حالته الخارقة تتسبب في رقي الإنسانية أم في انحطاطها؟ فإذا كانت تؤدي إلى رقي الإنسانية فلا بد أن نقول أن أحواله الخارقة تدل على رجاحة عقله وخرق ذكائه. أما إذا كانت أحواله تؤدي إلى دمار الإنسانية وخرابها، فلا بد من القول إن اختلاف أحواله دليل على جنونه.

باختصار، إن اختلاف أحوال أحد أو كفاءته الخارقة وحدها ليست علامة على جنون أحد.

واللافت أن العدو يقول اليوم أن أحداث نزول الوحي تدل على خلل في عقل محمد –والعياذ بالله– لكن القرآن قد رد على ذلك في أوائل آياته نزولاً ردًا مفصلاً، وأخبر العالم أن هذا الاعتراض دليل على شدة غباء المعترض. وهذا الرد موجود في سورة (القلم). لقد سبق أن ذكرنا أن المفسرين يقرّون أن هذه السورة قد نـــزلت بُعيد الآيات الأولى من سورة العلق. فهذه السورة تتناول تهمة الجنون نفسها وتعلن أن من الخطأ الظنّ أن محمدا قد أُصيب في عقله. ولا شك أن هذا الذكر لمن إعجاز القرآن الكريم، ولو تدبره غير المسلمين بأمانة لاعترفوا أن هذا الكلام ليس من نسج خيال بشر، بل هو تنـــزيل من رب العالمين. فحتى قبل أن يتّهم العدو محمدًا ﷺ بالجنون بناءً على أحداث نزول أول وحي عليه، عَلِمَ الله تعالى مِن على عرشه أنه سيأتي يوم يتهم فيه العدو محمدًا بالجنون لعدم معرفته بكيفية نـــزول الوحي! فأنزل الله تعالى في الوحي الثاني ردًّا على هذه الشبهة وقال

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾(القلم:٢-٣). فهذه ثاني سورة نزلت على رسول الله ﷺ، وقد ردّ الله في بدايتها على الاعتراض الناشئ في قلوب الناس بسبب الوحي، وقال نُقسم بالدواة والقلم وكلِّ ما كُتب بهما في العالم من علوم ومعارف أنه لو جُمع جميع هذا الكلام المسطور لعلمت الدنيا أنه ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾. بمعنى أن العلماء إذا كانوا قد جاءوا بهذه العلوم والمعارف التي كتبوها، فقد جئتَ بأكثر من معارفهم، وإذا سُمي هؤلاء علماء رغم علومهم الناقصة، فكيف يمكن أن تُسمّى مجنونا بسبب معارفك التي فاقت معارفهم؟ لا بد أن تسمى أعلم منهم، واختلافك عنهم يرجع إلى زيادة علمك لا إلى نقصانه. والدليل على أنك لست بمجنون أنك ستعلِّم الناس ما لم يعلّمهم أحد من أجل الرقي في الروحانية والدين، وسيكون هذا دليلا على أنك لست بمجنون. وإذا جاز أن تُعَدّ مجنونا، فلا بد من اعتبار جميع من نشروا العلوم والمعارف في العالم وأحسنوا إلى الإنسانية علميا وروحانيا مجانين. وإذا كان الناس لا يعتبرون هؤلاء العلماء مجانين، فبأي دليل يرمونك بالجنون؟ أفلا يرون أنه إذا ألّف أحد كتابا في علم، فلا يعتبرونه مجنونا، بل يسمونه عالمًا فذًّا ذكيًّا حيث بيَّن دقائق ذلك العلم بيانا رائعا، أما أنت فتبيّن في كل علم من العلوم دقائق المعارف التي لم يعرفها كبار علماء تلك العلوم حتى اليوم. وإذا كان الآخرون يُعتبرون علماء بإلقاء ضوء بسيط على علم من العلوم، فكيف تُعتبر مجنونا وقد ألقيتَ ضوءا أكثر منهم في كل علم من العلوم: روحانية أو أخلاقية أو اقتصادية أو قضائية أو سياسية أو عائلية؟ يجب أن يكون هناك سبب لاعتبارك مجنونا. فإذا كنت تفعل ما فعله كبار العلماء فكيف تُتَّهم بالجنون؟ فما أشدَّ هؤلاء الناس غباءً إذ لا يفهمون هذا الأمر الواضح البسيط، إذ شتّانَ بين العقل والجنون وبين العلم والجهل. فما دمتَ توزّع على الناس كنوز العلوم التي لم تخطر ببال كبار العلماء، فلا بد لهم من الاعتراف أنك أعلم العلماء، ولا يجوز لهم أن يتهموك بالجنون أو اختلال العقل. وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة بقوله ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.. أي أيها الناس، نقدّم كل ما كُتب حتى الآن بالدواة والقلم من علوم دليلاً على صدق محمد

وبراءته من الجنون. تعلمون أن أحدا إذا ألف كتابًا في علم الأخلاق سميتموه عالما كبيرا، وإذا أعد المرء كتابًا حول علم العقائد اعتبرتموه علاّمة، وإذا أتى أحد برأي جديد في السياسة عددتموه من العلماء الأفذاذ، وإذا قدم البعض رؤية جديدة في علم الاقتصاد سميتموه عالـــمًا مبدعًا، وإذا ألقى أحد الضوء على علم الاجتماع اعتبرتموه عالما كبيرا، أما محمد فقد أتى بمعارف وعلوم لا مقارنة بينها وبين أي كتاب في أي علم وفنّ. لقد تحطمت الأقلام مقابله، وعَيَّ القومُ في منافسته، لقد أجرى من العلوم أنهارًا، ومنح العالم من المعارف ذخيرة لا تنضب، فلا شك أنكم لو تخلَّيتم عن التعصب لأدركتم أن كفاءته الخارقة ليست دليلا على جهله، بل هي دليل على علمه الخارق وعلى التأييد والهدي الذي يتلقاه من السماء. لا شك أن هناك تشابهًا بين المجنون وبين العبقري، وبين الجاهل المطبق والفهّامة الكبير، حيث يتمتع كلاهما بطاقة غير عادية، لكن الفارق أن أحدهما يتردّى إلى الدرك الأسفل، والآخر يصعد إلى القمة. إن العالم العبقري يعلّم الناس ما لم يخطر ببال كبار العلماء، والجاهل المطبق يأتي ما لا يأتيه كبار الحمقى والجهال. فثبت أن البعض إذا امتاز عن الآخرين بكفاءاته العبقرية، فهذا لا يدل على جنونه، وإنما علينا أن نرى ما إذا كان تميُّزه عن الآخرين ينفع البشرية أم يضرها، وإذا كان ينفع البشرية، فلا يمكن أن يُعتبر تميُّزُه أو تغيُّرُه نتيجة الجنون.

ما أصدقَه وما أروعَه من دليل قدّمه الله تعالى على صدق النبي ﷺ، وقدَّمه في أوائل أيام نزول الوحي! وعندي أنها معجزة قرآنية عظيمة، حيث رد الله تعالى على اعتراض كان سيثيره أعداء الإسلام على وحي النبي ﷺ منذ بدء الوحي في وقت لم يكن ﷺ قد عرض دعوته على أهل مكة بعد، حيث يقرّ الجميع أنه عرض دعواه على أهل مكة بعد نزول أوائل سورة المدثر، أما قوله تعالى في سورة القلم ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فقد نزل قبل سورة المدثر، وبُعيد سورة ﴿اقْرَأْ﴾، وهذا يعني أن الله تعالى قد أخبر رسوله حتى قبل إعلان نبوته أن الناس سيتهمونه بالجنون. ولو افترضنا أن بعض الأعداء اتهم النبي ﷺ بالجنون

بعد نزول أول وحي عليه، فنقول: إن أول ما فعله القرآن الكريم أنه رد على طعنهم هذا ردًا قويًا لا يمكن دحضه.

يقول علماء النفس اليوم إنّ الكفاءة الخارقة علامة الجنون، وقد أجبتُ على هذا فيما سبق، وإذا كان أحد لا يقتنع بجوابي فأقول له: إذا كانت الكفاءة الخارقة هي نتيجة الجنون فنتمنى أن يجعلنا الله تعالى مجانين، لأنه ما دام تقدُّم العالم منوطا بالكفاءة الخارقة التي هي علامة الجنون فثبت أن رقي العالم ليس منوطا بالعقلاء بل بالمجانين، وهم الأحقّ بأن يتأسى الناس بأسوتهم.

لقد أثار السير "وليام موير" هنا اعتراضًا فقال: ما دام الله تعالى قد قال لمحمد هنا ﴿اقْرَأْ﴾ فهذا يعني أن السور التي هي في الواقع من قبيل مناجاة محمد مع نفسه كانت قد نزلت قبل سورة ﴿اقرأ﴾. (تفسير القرآن لـــ"ويري")

وبيان استدلاله هو أنه لما قيل لمحمد ﴿اقرأْ﴾ فلا بد أن يكون هناك سورٌ أُمِرَ بقراءتها على الناس، وتلك السور هي تلك التي يحادث فيها محمد نفسه، وهي: سورتا "الليل" و"الضحى" عند وليام موير، إذ يرى أن محمدا (ﷺ) كان يتدبر حالة قومه فصوّرها في هاتين السورتين، ثم ظنّ أنهما وحي من الله تعالى وعليه أن يقرأه على الناس، فاختلق سورة ﴿اقرأ﴾.

والرد على هذا الطعن كالآتي:

أولا: القضية تاريخية ولا علاقة لها بالاجتهاد. فإذا كان التاريخ يؤكد أن هاتين السورتين قد نزلتا بعد ﴿اقرَأْ﴾ فما قيمة القياس والاجتهاد إزاء ذلك؟ لا شك أن بعض الرواة قالوا أن سورة القلم ثم المزمل ثم المدثر هي أول ما نزل بعد سورة ﴿اقرأْ﴾، وقال بعضهم إن أوائل آيات سورة المدثر هي التي نزلت بعد سورة ﴿اقرأْ﴾، لكن لم يقل أحد من الرواة أن سورتي الليل والضحى نزلتا قبل ﴿اقرأْ﴾.

وثانيا: ليس في هاتين السورتين ما يجعلنا نعتبرهما أسبقَ نزولا من سورة ﴿اقرأْ﴾. هل تسجيل الأفكار الواردة فيهما في سورة تليهما كان محالاً؟ الحق أن القياس والاجتهاد إنما ينفع إزاء الشهادة التاريخية إذا كان وقوع حادث ما يستحيل تاريخيا،

أما إذا كان الحادث التاريخي ممكن الوقوع فاللجوء إلى القياس مقابله ليس إلا تنطّعًا، والعلم لا يسمح بذلك.

وجدير بالذكر أنه رغم أن وليام موير يرى أن سورة ﴿اقرأْ﴾ نزلت بعد السورتين اللتين هما في رأيه من قبيل حديث محمد لنفسه، ورغم أن الآخرين اكتفوا بقولهم أنه يبدو أن سورًا نزلت قبل سورة العلق إذ قيل فيها ﴿اقرأْ﴾ – وذلك بدون أن يشيروا إلى السورتين اللتين هما من قبيل حديث النفس بحسب تعبير وليام موير– غير أن المستشرق "نولدكه" وغيره يسلِّمون أن سورة ﴿اقرأْ﴾ هي أول السور نزولاً على الرسول ﷺ، ويقولون: ما دام ثابتًا من التاريخ أن آيات هذه السورة هي أول ما نزل على محمد، فما قيمة الاجتهاد إزاء هذه الشهادة التاريخية؟ (تفسير القرآن لـــ"ويري")

وليكن معلومًا أن ما انخدع به معظم المستشرقين الغربيين هو أن القرآن قد أخبر في بعض سوره عن معارضة الكفار للمسلمين، فظن المستشرقون أن هذا الوحي يجب أن يكون قد نزل بعد المعارضة المشار إليها، فلا يسلِّمون بنـــزوله قبل زمن المعارضة، وبناءً على هذا المبدأ يعتبرون بعض السور المكية مَدَنية أو يقولون عن الآيات التي نزلت في بداية الإسلام أنها نزلت في زمن متأخر حين بدأت معارضة شديدة للإسلام والمسلمين. ولكن وجود المسيح الموعود عليه السلام في هذا الزمن قد كشف بطلان فكرتهم تمامًا. عندما كان القرآن ينـــزل ما كان ليخطر ببال الصحابة ولا أي مسلم آخر ما هي المطاعن التي سيثيرها العدو في المستقبل، لأن معظمها قد أُثيرت في هذا الزمن، ونحن الذين نرد عليها، ولم يكن لكثير من هذه المطاعن أي قيمة زمن الصحابة؛ فمثلا لم يكن الصحابة يجدون أي صعوبة في تحديد ترتيب نزول السور، ذلك أن الصحابة كانوا موجودين، فإذا سأل أحد عن زمن نزول سورة قيل له: اسألْ زيدًا أو عمرا أو بكرا أو خالدا، فكان يجد الجواب الشافي فورًا. ولكن حين توفي هؤلاء القوم الذين كانوا قادرين على الإجابة الصحيحة كان طبيعيا أن يتساءل البعض متى نزلت سورة كذا وسورة كذا. فاستغلّ خصوم الإسلام هذا الوضع فحيثما وجدوا في القرآن نبوءةً قالوا لا بد أن

تكون هذه السورة أو الآيات قد نزلت بعد كذا وكذا من الأحداث، مع أنها تكون قد نزلت قبلها بكثير حيث أخبر الله تعالى فيها سلفًا كنبوءة أن بعضًا من كفار مكة يكون مثيلاً لفرعون، وبعضهم مثيلاً لهامان، ويكون محمد مثيلا ليوسف حيث يطرده إخوته من بلدته كما طُرد يوسف من بيته بيد إخوته. وهناك أنباء كثيرة من هذا القبيل في كلام الله الذي نزل على محمد ﷺ وتحققت فيما بعد حرفيًّا، ولكن الصحابة الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم كانوا قد تُوُفّوا، فاستغلّ العدو هذا الوضع، وحيثما وجد نبوءة في القرآن قال فورًا: هذه الآيات أو السور قد نزلت بعد هذه الأحداث. وهذا هو الطريق الذي اتبعه المستشرقون الغربيون لإبطال النبوءات القرآنية إذ يعتبرون الآيات والسور المتضمنة أي نبوءة أنها نزلت فيما بعد، إذ يقولون: لا شك أن الناس يقولون إنها سورة أو آيات مكية، ولكن حيث إنها تتحدث عن الحادث الفلاني الذي وقع في المدينة فثبت أنها ليست مكية، بل مَدنية. وليس غرضهم من ذلك إلا إبطال دعوى المسلمين بأن محمدا ﷺ قد تنبأ بأنباء عديدة وقد تحققت في وقتها، ليثبتوا أن محمدًا (ﷺ) لم يتنبأ بأية نبوءات، وإنما صاغ هذه الآيات وأضافها إلى قرآنه بعد وقوع هذه الأحداث. وما كان الصحابة أحياءً حتى يردّوا على هذا الاعتراض، وما كانت هذه الأسئلة قد أثيرت أمامهم حتى يلقوا الضوء حولها، لكن لم يكن من الرد عليها بُدّ، فحلَّ الله تعالى قضية ترتيب الآيات والسور أيضا ببعثة المسيح الموعود عليه السلام كما حلّ كثيرا من المسائل الإسلامية الأخرى.

وبيان ذلك أن القرآن الكريم لم يكن يدوَّن أولاً بأول تدوينًا يُعرَف به تاريخ نزول سوره وآياته، ولكن الله تعالى قد بعث المسيح الموعود عليه السلام في زمن انتشرت فيه الكتابة والمطابع على نطاق واسع، فكان كل شيء يُطبَع فورًا ويصل أيدي الناس وأنظارهم بحيث أصبح من المستحيل أن يزعم أحد أنه ما دام كذا وكذا من الوحي يشير إلى كذا وكذا من الأحداث التي وقعت في عام كذا وكذا، فثبت أن ذلك الوحي اختُلقَ بعد الحادث في سنة كذا لا قبلها. باختصار، إن شخص المسيح الموعود عليه السلام شاهدٌ قوي على بطلان طعن المستشرقين.

وتدليلاً على ما أقول أقدّم فيما يلي بعض ما سجل حضرته عليه السلام من وحي الله تعالى في كتابه "البراهين الأحمدية":

لقد طُبع "البراهين الأحمدية" في مطبعة يملكها أحد الإنجليز، وقد خرج أول مجلداته إلى النور عام ١٨٨٠ ومجلده الرابع في ١٨٨٤، وبحسب قانون الدولة بُعثتْ نسختان من كل مجلداته إلى الحكومة، بل لا تزال نسختان من هذا الكتاب محفوظتين في مكتبة متحف لندن، فليس بوسع الخصم الآن أن يقول أن زمن إلهاماته عليه السلام الواردة في "البراهين الأحمدية" هو بعد عام ١٨٨٤.

عندما نُشر هذا الكتاب كان المسيح الموعود عليه السلام معروفا بين الناس ولكن كباحث فقط، وكان يعرفه حوالي ألفا شخص، ولم يكن سبب معرفتهم إياه إلا ما كتبه من كتب أو مقالات ردًّا على ما يثيره النصارى والهندوس وغيرهم من مطاعن ضد الإسلام، أو كان معروفًا بينهم بسبب تقواه وحبه وإخلاصه. خذوا مثلاً "لاله بهيم سين" وكان أحد المحامين الهندوس في سيالكوت، وكان يكنّ للمسيح الموعود عليه السلام تقديرًا عظيما. لما رُفعت ضد حضرته عليه السلام القضية الشهيرة من قبل الشيخ كرم الدين، قال هذا المحامي الهندوسي لابنه المحامي "لاله كنورسين" -الذي صار فيما بعد عميد كلية الحقوق في لاهور وقاضي المحكمة العليا بجامون وكان قد رجع من إنجلترا بعد دراسة القانون-: إذا كنت تريد أن تنفعك دراستك هذه، فعليك أن تدافع عن حضرة الميرزا مجانا في هذه القضية، فإنه رجل رباني عظيم، وببركته ستكون حياتك ناجحة. (مكتوبات أحمد -بالأردو- المجلد الأول ص ٨٦ طبعة ٢٠٠٨)

فرغم أن هذا المحامي الهندوسيّ كان يعرف أن حضرة المسيح الموعود عليه السلام يخوض المناظرات الدينية ضد الهندوس دائما، إلا أنه كان يكن لحضرته عليه السلام حبًا وإخلاصا وتعظيما عجيبًا حتى إنه أمر ابنه بالدفاع عن حضرته عليه السلام في تلك القضية مجانًا لتكون حياته مباركة موفقة.

وكان المسيح الموعود عليه السلام يخوض النقاشات ضد المسيحيين أيضا، ومع ذلك نرى أنّهم كانوا يكنّون له حبًّا وإخلاصا، فحينما كان حضرته يعمل موظفًا في

محكمة بمدينة سيالكوت كان قسيس كبير يدعى "بوتلر" يخوض في المناظرات الدينية مع حضرته، وذات مرة جاء هذا القسيس إلى تلك المحكمة، وحيث إن القسيسين كانوا يحظون باحترام وتقدير كبيرين في ذلك الزمن، ظن قاضي المحكمة أنه جاء للقائه، فقام له وصافحه بأدبٍ جمٍّ وقال: هل من خدمة أُسدي لحضرتك؟ فقال القسيس: لم آت للقائك، إنما جئت للقاء ميرزا غلام أحمد، حيث إني أريد العودة إلى بلادي "إنجلترا"، وإني أكنّ له حبًّا وتبجيلا عظيمين رغم خوضي معه في المناظرات الدينية، فأردتُ أن ألقاه قبل عودتي إلى الوطن. ثم توجه القسيس إلى مكتب المسيح الموعود عليه السلام في المحكمة، وجلس أمامه على الأرض، وظل يحدثه طويلا. (سيرت المهدي -بالأردو- المجلد الأول ص ١٤١ رقم الرواية: ١٥٠ طبعة ٢٠٠٨)

فترى أن هذا القس الإنجليزي الذي يجد قاضي المحكمة شرفًا في لقائه يذهب إلى زيارة المسيح الموعود عليه السلام في المحكمة قبل أن يعود إلى وطنه، مع أن حضرته كان يعمل هناك كاتبًا عاديا، و لم يكن عمره عندئذ كعمرِ أحفادِ ذلك القسيس.

وكان المولوي محمد حسين البطالوي من كبار علماء المسلمين، وعندما ألف المسيح الموعود عليه السلام كتابه "البراهين الأحمدية" علّق عليه البطالوي قائلا:

"في رأيي لم يسبق في الإسلام نظير لهذا الكتاب من حيث مقتضيات هذا العصر وحاجات هذه الأيام، ولا نعلم عن المستقبل شيئًا، لعل الله يُحدِث بعد ذلك أمرًا. وقد نصر مؤلفه الإسلام بنفسه وماله وقلمه ولسانه وأسوته نصرة قلما نجد نظيرها في المسلمين السابقين." (إشاعة السنة، يونيو إلى أغسطس ١٨٨٤ المجلد ٦ رقم ١١)

إذا أشاد الناس بكتاب بأنه أعظم كتاب في هذا العام اعتُبر من الكتب القيمة جدا، ولو قالوا إنه لم يؤلَّف في العقد الأخير مثله ازداد قيمةً وصيتًا، ولو قالوا إنه لم يُر كتاب مثله في القرن الماضي كان مدحًا عظيمًا جدًّا، أما المولوي البطالوي فلم يقل عن "البراهين الأحمدية" إنه لم يؤلَّف نظير هذا الكتاب في القرن الماضي أو

القرنين الماضيين، بل قال: لم يؤلف كتاب مثله في فضائل الإسلام من قبل المسلمين منذ ثلاثة عشر قرنا.

باختصار، كان الجميع.. مسلمين وهندوسا.. يثنون على المسيح الموعود عليه السلام حتى زمن طبع "البراهين الأحمدية". لا شك أن الهندوس بدأوا يعارضونه عليه السلام بعد انتشار هذا الكتاب، أما قبل ذلك فلم يناهضه الهندوس أبدًا، بل كان كثير منهم يكنّون له الحب والإخلاص كما هو واضح مما فعله "لاله بهيم سين"، فكان كثير من الهندوس يراسلونه معترفين بصلاحه وورعه، ولم يكن أحد يتصور حينها أن أحدا سينبري لمعارضته عليه السلام؛ لأن الجميع حتى أصحاب الديانات المختلفة كانوا يثنون عليه لعِلمهم أنه صادق لا يكذب أبدا، تمامًا كما كان النبي ﷺ شهيرًا بين القوم بالصدوق الأمين قبل دعواه. باختصار، كل الذين كانوا يعرفونه.. مسلمين أو هندوسا أو نصارى.. كانوا يحترمونه ويبجلونه، أما الذين لم يكونوا يعرفونه فما كانوا يكنّون له صداقة ولا عداوة. وقد طُبع كتابه البراهين الأحمدية في هذه الظروف.

والآن هلمّ نرَ ما هي الإلهامات الربانية والأخبار الغيبية التي وردت في "البراهين الأحمدية" الذي طبع في زمن لم يكن واردًا فيه معارضةُ حضرته ولا موافقته؛ إذ لم يكن هناك مؤمنون به ولا معارضون.

عندما نلقي نظرة عابرة على "البراهين الأحمدية" نقرأ فيه الوحي التالي:

"قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ."

(البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٦٠٢)

الواقع أنه لو لم يكن هذا الكتاب مطبوعًا، ولم يسجّل فيه تاريخ طبعه، لقال البعض من أمثال القسيس "ويري": يبدو أن هذا الوحي نزل في عام ١٩٠١ حين كانت جماعة من الناس قد آمنوا بمؤسس الجماعة. مع أن الواقع أن هذا الكتاب قد طبع عام ١٨٨٤، ولا تزال نسخته موجودة عند الحكومة.

في ذلك الزمن الذي لم يكن ثمة معارضة ولا مناهضة ضد المسيح الموعود عليه السلام نجد أن الله تعالى قد أوحى إليه أيضًا الآية التالية بشيء من التغيير: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ. وكان كيدهم عظيما. (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٦٠٣).. أي: أيها الإنسان، سوف يهُبّ الناس لمعارضتك وسوف يشترك فيها أهل الكتاب والمشركون، أي اليهود والنصارى والمسلمون والهندوس كلهم، ولن يرتدعوا عن مناهضتك حتى نريهم آية تلو آية، وعندها سيدركون أنك مبعوث من عندنا. ستكون المكائد والحيل التي يلجأون إليها ليهزموك خطيرة وعظيمة، ولكنا سنخيّبهم في خططهم كلها، ونكتب لك النجاح والغلبة.

ما أعظمَ وما أوضحَ النبأَ الذي تلقاه حضرته عليه السلام في هذا الوحي الرباني عن المعارضة! في ذلك الوقت كان الجميع يحترمونه سواء كانوا هندوسا أو نصارى أو مسلمين، ومع ذلك يخبره الله تعالى سلفًا أن اليهود والنصارى والمسلمين والهندوس والسيخ كلهم سيعارضونك ويمكرون بك مكرًا كُبّارًا للقضاء عليك وعلى اسمك، ولكننا سنُري آياتنا الكبرى تأييدًا لك، فتكون لك الغلبة عليهم في النهاية. وقد أخبره الله تعالى بذلك حين لم يكن اليهود ولا أهل الأديان من البلاد الأخرى يعرفون حضرته عليه السلام.

ومما أوحى الله تعالى إلى حضرته عليه السلام الآياتِ القرآنية التالية:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُون".

"قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَب". (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٦٠٤)

علمًا أن هذه الآيات القرآنية مَدَنية وقد نـــزلت في شأن المنافقين. ولا شك أن المنافقين يوجدون في الجماعات الربانية حين تلوح آثار غلبتها في الأفق من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يزال عدوّها قويًا. علمًا أن لكل زرع موسمًا خاصًا، كذلك لنماء زرع النفاق الديني موسم معين وهو حين يكون الدين غالبًا على جزء من الأرض من جهة، ومن جهة أخرى لا يكون الكفر مغلوبا تماما. ذلك أن المنافقين يخافون أهل الكفر وأهلَ الإيمان في وقت واحد، وحيث إن هناك سفينتين تُعَدّان في

ذلك الوقت، فالمنافق يريد أن يظل راكبًا في كلتيهما، فلا يأتي إلى الدين كليةً ولا يذهب الى الكفر كلية. إنه لا يتجاسر على محاربة المسلمين مخافة أن ينتصروا، ولا يجرؤ على حرب الكفار خوفًا من انتصارهم، ولذلك قد أخبر الله تعالى المسيح الموعود عليه السلام في هذه الإلهامات أن الزمن قريب حين تزدهر جماعتك وتصبح مقابل الكفار ككفّتي ميزان، كما هو الحال اليوم في قاديان. سوف يكون هناك فئة من المنافقين في جماعتك يكونون على صلة بالمؤمنين من ناحية وبالكفار من ناحية أخرى. لم يكن في زمن المسيح الموعود عليه السلام في جماعته أي شكل من النفاق، إذ لم يكن أحد يتوجه إلى قاديان إلا بعد أن يكون مستعدًّا للتعرض للضرب والأذى، أما الآن فإن جماعتنا قد ازدهرت وقامت مقابل العدو ككفَتي ميزان، ولذلك قد وُجدت فيها فئة المنافقين أيضًا. ففي عام ١٩٣٤ عندما أثار الأحرار فتنة في قاديان بمساندة بعض المسؤولين الحكوميين، كان بعض المنافقين في جماعتنا يَلقَون الأحرار، فكنا نضطر لمراقبتهم. لقد تحققت هذه النبوءة في قاديان فقط حتى الآن، وعندما تزدهر فروع جماعتنا المختلفة في الهند كلها وتتقوى إزاء المنكرين، فسوف يوجد منافقون في تلك الفروع أيضا، وإذا ازدهرت جماعتنا أكثر فستتحقق هذه النبوءة في فروع جماعتنا خارج الهند أيضا، تارة في أوروبا وطورًا في أمريكا، وحينًا في الصين وآخر في اليابان، ومرة في مصر وأخرى في الشام وفلسطين وغيرهما.

إذن ففي عام ١٨٨٤ حين لم يكن أحد يتصور أن المسيح الموعود عليه السلام سيلقى المعارضة وأنه ستقوم على يده جماعة عظيمة، أخبره الله تعالى أن جماعة ستقوم على يدك وتزدهر وتتقوى حتى تصبح إزاء الكفار ككفتي ميزان، وعندها سيوجد فيها بعض المنافقين. لا شك أنها أمور لم تكن لتخطر بخلد إنسان في ذلك الوقت.

ثم ورد في إلهامات المسيح الموعود عليه السلام:

"تَلطَّفْ بالناس وارحمْ عليهم، أنت فيهم بمنـــزلة موسى. واصبرْ على ما يقولون". (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٦٠٥)

فقد أخبره الله تعالى هنا أنه سيأتي عليه ما أتى على موسى من ظروف، وسيثير ضده الناس مطاعن كثيرة، فمن واجبه أن يصبر عليها.

والسؤال هنا: إذا كانت الإلهامات تُختلق بعد وقوع الأحداث، فكيف نُشرت هذه الإلهامات في "البراهين الأحمدية" قبل وقوعها؟

ثم هناك وحي آخر تلقاه حضرته عليه السلام وهو: "أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون" (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٦٠٧).. أي إنَّ ظن المؤمنين هذا باطل، إذ لا بد لهم من أن يتعرضوا لفظائع شديدة ويتحملوا مصاعب كبرى، وبعد الفوز في هذه الاختبارات سيعدّهم الله تعالى من المؤمنين حقًّا.

إذن، فليس في الإلهامات المسجلة أعلاه إلهام واحد ينطبق على ما كان عليه حضرته عليه السلام عام ١٨٨٤، بل كلها أخبار عن أحداث مستقبلية.

وهناك إلهامات أخرى تحوي أنباءً عن الأحداث القادمة، فمثلاً قد رأى المسيح الموعود عليه السلام عام ١٩٠٣ رؤيا، فقال عنها: لقد رأيتُ أن عصا "زار" (قيصر) روسيا في يدي. (التذكرة، ص ٣٧٧)

فإذا صحَّ زعم المستشرقين الغرب أن الإلهامات تُختلق بعد وقوع الأحداث دائمًا، فما هي الأحداث التي اختُلقَ بسببها هذا الإلهام؟ لم يكن هناك في عام ١٩٠٣ ما يدفع حضرته عليه السلام ليقول إن حُكم روسيا سيصبح في قبضتنا. كلا، بل كان من الصعب جدًا –نظرًا للظروف المادية– القول إن جماعته ستصبح غالبة حتى في محافظة غورداسْبور الهندية، ناهيك عن أن يدّعي حضرته أن حكم روسيا سيكون في يد جماعته. إنها نبوءة لم يظهر لها حتى اليوم أي أثر، ولكنها حين تتحقق سيختلق العدو ألف حجة سعيًا منه ليثبت أنها اختُرعت بعد وقوع هذا الحدث.

إذن، فإن كتاب المسيح الموعود عليه السلام "البراهين الأحمدية" يشكّل ردًّا على جميع المطاعن التي يثيرها المستشرقون على القرآن الكريم قائلين أن آياته التي تحتوي على نبوءات عن أحداث آتية إنما اختُرعتْ بعد وقوع هذه الأحداث. ونحن نقول لهم: إذا كانت دعواكم صحيحة فأَثبتوا لنا أن النبوءات التي أدلى بها المسيح الموعود عليه السلام قد دوّنها بعد وقوع هذه الأحداث، وإن لم تستطيعوا ذلك ولن تستطيعوا، فلم لا تفكّرون في أنه ما دام الشخص الذي يعتبر نفسه خادمًا للمصطفى ﷺ قد

قدر على إخبار الناس عن أمور غيبية بناءً على وحي الله تعالى قبل حدوثها، فكيف لا يقدر على ذلك سيده؟ ألا يستطيع السيد أن يدلي بمثل هذه الأنباء قبل أوانها؟ إذا كانت إلهامات المسيح الموعود عليه السلام قد أنبأت عمّا سيواجه جماعته من معارضة ومكائد ومؤامرات في وقت كان الناس كلهم يحترمونه ويؤيدونه، فكيف لا يمكن أن يذكر القرآن الكريم مثل هذه الأنباء قبل موعدها؟ فلا جرم أن الله تعالى قد ردّ على كل هذه المطاعن والهجمات ضد القرآن الكريم بشخص المسيح الموعود عليه السلام بحيث لن يجرؤ العدو على الطعن فيه مرة أخرى.

والآن أود أن أبيّن الفارق بين بدء الوحي للرسول ﷺ وبين بدء الوحي للأنبياء السابقين عليهم السلام.

يطعن المستشرقون في حادث بدء نزول الوحي على الرسول ﷺ، ولكنهم لا يفكرون في كيفية بدء الوحي لأنبيائهم الذين يعترفون بصدقهم. كان موسى عليه السلام أكبر أنبيائهم، وقد ورد في التوراة أنه كان يرعى غنم حميه "يثرون" إذ رأى نارًا في شجرة بالقرب من جبل حوريب، فأخذته حيرة وقال هناك نار حول الشجرة ومع ذلك لا تحترق. فتقدم نحو هذا المشهد فـــ "نَادَاهُ اللهُ مِنْ وَسَطِ الْعُلّيقَةِ وَقَالَ: مُوسَى، مُوسَى! فَقَالَ: هأَنَذَا. فَقَالَ: لا تَقْتَرِبْ إلى ههنا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ. ثُمَّ قَالَ: أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ. فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ". (الخروج ٣: ٤-٦)

فشتّان بين بدء الوحي للنبي ﷺ وبدء الوحي لموسى عليه السلام! إذ يقول الله تعالى عن رسولنا ﷺ إنه لما رأى ربّه ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾(النجم:٩).. أي أنه جرى إلى الله، والله احتفى به، وهذه هي علامة الحب الكامل. ولله در القائل ما معناه: كلانا نشعر بالخجل لأننا نلتقي بعد مدة طويلة، فالأنسب الآن أن تتقدم قليلا وأتقدم قليلا. فثبت أن علامة الحب الصادق أن يتقدم كلا الطرفين، وهذا ما يخبرنا الله تعالى هنا بأن محمدًا لما رأى الله تعالى جرى إليه فأتاه الله سعيًا. أما موسى عليه السلام فتقول التوراة إنه لما رأى الله تعالى قال الله له: "لا تَقْتَرِبْ إِلَى ههُنَا". هذه الكلمات

تبين لنا البون الشاسع بين تجلّي الله على محمد ﷺ وتجلّيه على موسى عليه السلام، حيث يخبرنا الله تعالى أن محمدا لما تقدّم إليّ تقدمتُ إليه كي نلتقي ونتّحد، أما موسى عليه السلام فنهاه الله عن الاقتراب قائلا: "اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ"، بينما لم يؤمر نبينا ﷺ بخلع حذائه شأنه شأن الملوك والراجات عندنا في الهند، فعندما يدخل عليهم أحد الكبراء يدخل بحذائه، أما إذا دخل عليهم أحد الفلاحين البسطاء أُمِرَ بخلع حذائه عند الباب. فلأن النبي ﷺ هو أعلى مكانةً من موسى عليه السلام فلم يؤمر ﷺ بخلع النعلين، أما موسى فأُمر بخلعهما كما يؤمر الفلاحون العاديون بخلع أحذيتهم عند دخولهم على الملوك.

ثم قيل لموسى عليه السلام: "أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ".. فأيُّ علمٍ في هذا الكلام! وأيّ ميزة فيه! إنه أمرٌ بسيط يعرفه كل إنسان. أما ما قيل لرسولنا ﷺ عند بدء الوحي فسوف نبين لاحقًا ما في هذا الكلام من محاسن وميزات.

يطعن القسيس "ويري" وزملاؤه أن محمدا خاف وارتجفت أكتافه حين نزل عليه الوحي، ولكنهم لا يرون ما ورد هنا صراحة: "غَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ". فإذا جاز الطعن في رسول الله ﷺ لخوفه عند نزول أول وحي عليه، فلا بد من الطعن في موسى عليه السلام، بل بشكل أشدّ، إذ غطّى وجهه خوفًا، أما النبي ﷺ فقد ارتجفت بوادره (أكتافه) فقط (البخاري: كتاب التفسير، سورة اقرأْ). وواضح أن الشخص الكبير إذا خاف ارتجفت أكتافه، أما الصغير فإذا خاف غطى وجهه. لن تجد أي إنسان كبير يضع يديه على عينيه حين يصيبه الخوف، ولكنك ترى هذا من الصغار يوميا. فكان موسى عليه السلام في هذه المناسبة كالصغار إذ غطى وجهه خوفًا من أن يرى الله تعالى، ويماثل فعلُه فِعْلَ النّعامة التي تدفن رأسها في الرمال عند الخطر. أما محمد رسول الله ﷺ فلأنه كان بمنـــزلة شاب قوي من حيث الروحانية فلم يغطِّ عينيه، غير أن أكتافه ارتجفت هيبةً. فالطعن الذي يوجهه المستشرقون للنبي ﷺ يمكن أن يُوجَّه إلى موسى عليه السلام بشكل أشدّ.

ثم ورد: "فَقَالَ مُوسَى لِلهِ: مَنْ أَنَا حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَحَتَّى أُخْرِجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ؟" (الخروج ٣: ١١)

يقول المسيحيون أن محمدا (ﷺ) شكّ في وحيه، ولكنهم لا ينظرون إلى ما فعل موسى عليه السلام. لقد أمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون، لكنه بدلاً من طاعة أمره متوكلا على نصرته وتأييده وواثقًا بأنه تعالى لن يخذله ما دام قد عهد إليه هذه المهمة، شكّ في الأمر بحيث قال لله تعالى: من أنا حتى أذهب إلى فرعون؛ إني إنسان فقير وفرعون ملكٌ جبّار، فلا أستطيع مواجهته. إن القسيسين يعتبرون موسى عليه السلام مقربًا عند الله تعالى رغم أنه رفض أمر الله تعالى، ولكن إذا قال نبينا ﷺ "قد خشيتُ على نفسي" فإنهم يقولون: هذه الكلمات دليل على أن محمدًا شك في وحي الله تعالى!

ثم ورد في التوراة أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام بأن يذهب ويخرج قومه من مصر إلى هذا الجبل للعبادة، لكنه رفض هذا الأمر الرباني حيث ورد: "فَأَجَابَ مُوسَى وَقَالَ: وَلكِنْ هَا هُمْ لا يُصَدِّقُونَنِي وَلا يَسْمَعُونَ لِقَوْلِي، بَلْ يَقُولُونَ: لَمْ يَظْهَرْ لَكَ الرَّبُّ". (الخروج ٤: ١).

الحق أن حادث نزول الوحي على نبينا ﷺ مطابق للعقل تماما، ومع ذلك يزعم النصارى أنه (ﷺ) شكّ في وحيه، ولكنهم لا يرون كيف أن موسى عليه السلام رفض أوامر الله الصريحة، فقد أمره الله تعالى أن يأتي بقومه هنالك للعبادة، ولكنه بدلاً من تنفيذ أمره فورا، قال رب إنهم لن يؤمنوا بي ولن يستمعوا لي، بل يقولون لي إنك لم تر الله تعالى، فلن أذهب إليهم.

ثم ورد في التوراة: "فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: مَا هذِهِ فِي يَدِكَ؟ فَقَالَ: عَصًا. فَقَالَ: اطْرَحْهَا إِلَى الأَرْضِ. فَطَرَحَهَا إِلَى الأَرْضِ فَصَارَتْ حَيَّةً، فَهَرَبَ مُوسَى مِنْهَا." (الخروجُ ٤: ٢-٣).

أليس غريبًا أن يهرب موسى عليه السلام برؤية الأفعى، مع أن كل إنسان يمكن أن يقتل الأفعى. إننا نرى أن الإنسان العادي حين يرى أفعى لا يأخذ في الهروب، بل يرفع العصا ويقتلها فورا، لكن موسى عليه السلام حين رأى الأفعى هرب خوفًا منها.

إن النصارى يقرأون هذا الحادث ومع ذلك لا يرونه قادحًا في نبوة موسى عليه السلام، أما محمد ﷺ فإنه لم يفر ولم يهرب عند نزول الوحي، إنما قال: لَعَلّي لن أقدر على حمل هذه المسؤولية، ومع ذلك يتّهمه هؤلاء النصارى أنه كان في شكٍّ وترددٍ مما أُوحيَ إليه.

ثم ورد: "فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ! لَسْتُ أَنَا صَاحِبَ كَلاَمٍ مُنْذُ أَمْسِ وَلا أَوَّلِ مِنْ أَمْسِ، وَلا مِنْ حِينِ كَلَّمْتَ عَبْدَكَ، بَلْ أَنَا ثَقِيلُ الْفَمِ وَاللِّسَانِ." (الخروجُ ٤: ١٠)

كم كانت عظيمة تلك المعجزة التي رآها موسى من قبل! لقد رأى العصا صارت أفعى، فلما أمسكها بأمر الله تعالى عادت عصا مرة أخرى، ورغم رؤية هذه المعجزة العظيمة ظل متمسكًا بموقفه وقال لربه: لم تكنْ في لساني فصاحة لا من قبل ولا الآن بعد رؤيتي إياك. لا شك أنني كنت شخصًا عاديا من قبل، ولكن رغم رؤية جلالك لم يتحسن لساني، بل لا يزال به لُكْنةٌ، ولا أزال غير فصيح كما كنت من قبل. "فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: مَنْ صَنَعَ لِلإِنْسَانِ فَمًا؟ أَوْ مَنْ يَصْنَعُ أَخْرَسَ أَوْ أَصَمَّ أَوْ بَصِيرًا أَوْ أَعْمَى؟ أَمَا هُوَ أَنَا الرَّبُّ؟ فَالآنَ اذْهَبْ وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَأُعَلِّمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ" (الخروجُ ٤: ١١-١٢). ورغم سماع هذا الحكم والوصية لم يتغير موقف موسى، بل قال: "اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَرْسِلْ بِيَدِ مَنْ تُرْسِلُ". (الخروجُ ٤: ١٣)

فترى هنا أن موسى عليه السلام يعصي أوامر الله مرة بعد مرة، ومع ذلك لا يشك علماء المسيحيين في كونه نبيا عظيما، أما رسولنا ﷺ فإنه عندما يقول لا أدري هل أستطيع النهوض بهذه المسؤولية أم لا، فيشكّكون في إيمانه وسلامة عقله! مع أن حادثة موسى عليه السلام مسجلة في كتابهم السماوي، أما ما نُسبَ إلى النبي ﷺ من قول فليس مسجلا في القرآن الكريم، بل ورد في الحديث الذي لا يساوي كلام الله شهادةً.

ثم ورد في التوراة أنه لما رفض موسى عليه السلام أوامر الله مرة بعد أخرى وبّخه الله تعالى حيث ورد: "فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى مُوسَى وَقَالَ: أَلَيْسَ هَارُونُ اللاَّوِيُّ أَخَاكَ؟ أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ يَتَكَلَّمُ، وَأَيْضًا هَا هُوَ خَارِجٌ لاسْتِقْبَالِكَ، فَحِينَمَا يَرَاكَ يَفْرَحُ

بِقَلْبِهِ، فَتُكَلِّمُهُ وَتَضَعُ الْكَلِمَاتِ فِي فَمِهِ، وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَمَعَ فَمِهِ، وَأُعْلِمُكُمَا مَاذَا تَصْنَعَانِ." (الخروجُ ٤: ١٤-١٥).

إذن، فالمطاعن التي يثيرها المسيحيون ضد النبي ﷺ فيما يتعلق ببدء نزول الوحي عليه، فإنها كلها يمكن أن تثار ضد حادث نزول الوحي على موسى عليه السلام. إننا لا نسلم بمطاعن المسيحيين، وقد سجلنا الرد عليها، ومع ذلك نسأل هؤلاء النصارى على سبيل التبكيت: إذا كنتم تزعمون أن محمدا (ﷺ)كان مترددا ومتشككا فيما أوحي إليه، فهذا الاعتراض نفسه يَرِدُ على موسى عليه السلام بحيث لا مجال لأي تأويل له.

والآن نفحص أحداث بدء نزول الوحي على المسيح عليه السلام. لقد ورد أنه عليه السلام لما ذهب إلى يوحنا وطلب منه أن يعمّده، رفض في البداية، ثم وافق فعمّده. وما حدث بعد ذلك هو كالآتي: "فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى رُوحَ اللهِ نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِيًا عَلَيْهِ، وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلاً: هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ." (مَتَّى ٣: ١٦-١٧).

انظروا إلى هذا الحادث وإلى حادث بدء الوحي على الرسول ﷺ، ثم فكّروا هل هناك أي مقارنة بين الحادثين؟ فأما محمد ﷺ فيبعث الله إليه رسالته عن طريق ملاك، وأما المسيح عليه السلام فينـــزل عليه روح القدس في صورة حمامة، وكيف يمكن أن يخاف الحمامةَ التي هي طير ضعيف يمكن أن يمضغه الإنسان مع عظامه. هذا هو الفارق بين التجلي العيسوي والتجلي المحمدي، ولذلك نجد أن الله تعالى حفظ تعاليم القرآن الكريم من الشِرك، ولكن الشيطان تغلب على المسيحية، ذلك لأن الملاك نزل بالوحي على محمد ﷺ، بينما نزل روح القدس بالوحي على مؤسس المسيحية في صورة ضعيفة جدا. ومشيرًا إلى هذه الحقيقة قد قال المسيح الموعود عليه السلام: "إن التجلي الذي نزل به روح القدس على نبينا محمد ﷺ هو أعظمُ من كلِّ تجلٍّ. لقد ظهر روح القدس على بعض الأنبياء في هيئة حمام، وظهر على بعضهم الآخر في صورة بقرة، وظهر على غيرهم في شكل حوت أو تمساح، أما تمثُّله في صورة بشرٍ فلم يأت أوانه إلا حين بُعث الإنسانُ الكاملُ أعني نبيَّنا ﷺ؛ فلمَّا بُعِثَ تجلَّى عليه روحُ القدس على هيئة إنسان لكونه ﷺ إنسانًا كاملاً. وبما أن تجلّي روح

القدس عليه كان تجليًا قويًا جدًا بحيث ملأ الآفاق ما بين السماء والأرض، فلذا بقي تعليم القرآن الكريم محفوظًا من الشرك. وبما أن روح القدس تمثّلَ لمؤسس المسيحية على شكل كائن ضعيف جدًّا.. أعني على شكل حمامة، فلذلك قد انتصر الروح الخبيث أي الشيطان على هذه الديانة." (سفينة نوح، الخزائن الروحانية المجلد ١٩ ص ٨٣-٨٤)

وجدير بالذكر هنا أن الذي يبعثه الله تعالى لهداية الناس يسمَّى رسولا، والرسل نوعان: الأول مَن كانت مهمته إيصال رسالة فقط، ولا يكون له أي عمل آخر، والآخر من كانت مهمته إيصال رسالة وتنفيذ الأحكام أيضا. وكان نزول التجلي الإلهي على المسيح عليه السلام بصورة حمامة إشارةً إلى أن منصبه كان منصب رسول فقط، وأن مهمته انتهت بعد ذلك، أما نزول التجلي الإلهي على رسولنا ﷺ في شكل إنسان كامل، فكان إشارةً إلى أنه ليس رسولا فقط، بل هو أسوة كاملة لأتباعه أيضا.

ثم ورد في الإنجيل: ثُمَّ أُصْعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ مِنَ الرُّوحِ لِيُجَرَّبَ مِنْ إِبْلِيسَ. فَبَعْدَمَا صَامَ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، جَاعَ أَخِيرًا. فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْمُجَرِّبُ وَقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَقُلْ أَنْ تَصِيرَ هذِهِ الْحِجَارَةُ خُبْزًا؟ فَأَجَابَ وَقَالَ: مَكْتُوبٌ: لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ. ثُمَّ أَخَذَهُ إِبْلِيسُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ وَأَوْقَفَهُ عَلَى جَنَاحِ الْهَيْكَلِ، وَقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَاطْرَحْ نَفْسَكَ إِلَى أَسْفَلُ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ، فَعَلَى أَيَادِيهِمْ يَحْمِلُونَكَ لِكَيْ لا تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ. قَالَ لَهُ يَسُوعُ: مَكْتُوبٌ أَيْضًا: لا تُجَرِّبِ الرَّبَّ إِلهَكَ. ثُمَّ أَخَذَهُ أَيْضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ جدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا، وَقَالَ لَهُ: أُعْطِيكَ هذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي. حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ." (مَتَّى ٤: ١-١٠)

لقد طعن هؤلاء النصارى في رسول الله ﷺ بأنه كان يشك فيما أوحي إليه، ولكنا نرى في الإنجيل أن الشيطان ظل يأخذ يسوع عليه السلام هنا وهناك. نحن لا نأخذ

بهذا الحادث على ظاهره، إنما نسأل: إذا كان لدى يسوع عليه السلام يقين كامل بالله تعالى فلماذا تبع الشيطان هنا وهناك؟ ولماذا كان يمشي وراء الشيطان بكل اطمئنان حيثما أخذه؟ فإذا أخذه إلى بيت المقدس مشى وراءه، وإذا أوقفه عند جناح الهيكل وقف هنالك، كأنه ليس به حول ولا قوة تجاه الشيطان في كل ما يأمره. ليس أمام المسيحيين إلا أحد خيارين: فإما أن يؤمنوا أنه حادث مادي، أو يؤمنوا أنه ليس ماديا بل رؤيا. فإذا قالوا إنه حادث مادي، فنقول: لماذا جاء الشيطان إلى المسيح؟ هل يستطيع أن يخدع ابنَ الله فعلاً؟ وإذا قيل لا، فمجيئه إلى المسيح بشكل مادي ظاهرٍ لا معنى له ولا تأويل له. ولو قالوا إنه رؤيا، فهذا ممكن، ولكن لا بد لهم في هذه الحالة من الاعتراف أنه كان قد بدأ يفكر أنه ربما الشيطان هو الذي يوحي إليه! فاتّباعه للشيطان في الرؤيا وعدم طرده له يكشف حالة قلبه.. أعني أنه لم يكن يوقن في تلك الحالة أنه ليس بالشيطان، ولم يستطع أن يفرّق بين الرؤيا الشيطانية والرؤيا الرحمانية.

باختصار، لقد تلقى المسيح عليه السلام أولَ تجلٍّ في شكل حمامة بحسب الإنجيل، وتلقى الرسول ﷺ أول تجلٍّ في شكل إنسان كامل القوى، وتلقى موسى عليه السلام أول تجلٍّ على صورة نار. والشك والخوف ثابتان لموسى، وكذلك ثابتان لعيسى لأن لقاءه بالشيطان واتّباعه له يدلان على تردُّدِه وشَكِّه، وعلى أن قلبه لم يكن عامرًا باليقين والثقة بالله تعالى حينذاك كما صار عامرا به فيما بعد.

ثم هناك سؤال آخر: إذا كان روح القدس نزل على المسيح عليه السلام في شكل حمامة، فماذا كانت النتيجة؟ إن ما يقوله الإنجيل هو: "وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلاً: هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ" (مَتَّى ٣: ١٧). ما هو العلم الذي أُعطيَه المسيح في هذه الكلمات؟ وما الحكمة الجديدة فيها؟ إن سماع صوت ليس بأمر عظيم، فإن المجنون أيضًا يسمع صوتا أحيانا.

ثم لما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ" فما هي المتعة التي وجدها بهذا النداء الإلهي؟ وأي عرفان تلقاه بهذا

الصوت؟ هل يمكن لموسى عليه السلام أن يقول بعد ذلك إن الله أخبره ما لم يعلمه من قبل، أو فتح عليه بابا جديدا من المعرفة؟ كلا، لا يمكن قول ذلك.

كذلك إذا كان الروح القدس قد نزل على المسيح عليه السلام في شكل حمامة، أو كان سمع صوتًا من السماء بأنه ابن الله الحبيب، فماذا حصل بذلك؟ إنه مجرد بيان، لا قيمة له أكثر من ذلك، فليس في هذه الكلمات عرفان ولا علم ولا حكمة ولا سر من أسرار الوصال بالله تعالى، ولا ما يزيد الإنسان معرفةً.

ثم يجب أن نأخذ بالحسبان أن ما رآه المسيح عليه السلام من نزول روح القدس عليه في شكل حمامة، فيمكن القول عنه أيضًا أنه لم يكن مشهدًا حقيقيا، بل كان نتيجة لاختلال في عقله، لأن الذين يصابون بالأوهام يستنتجون من مثل هذه الأمور البسيطة نتائجَ لا تخطر ببال أحد. فمثلا: كان هناك صحابي للمسيح الموعود عليه السلام اسمه المولوي "يار محمد"، وكان بعقله ضعف، وكان من عادة المسيح الموعود عليه السلام تحريك يده أثناء الكلام في بعض الأحيان، فكلما حرك عليه السلام يده قفز المولوي واقترب منه ظنًّا منه أنه عليه السلام يدعوه بإشارة يده. كذلك يتفاءل المصابون بالوهم بطيران الطير أحيانا، فإن طار جهة اليمين ظنوا أن النجاح حليفهم، وإن طار جهة الشمال اعتبروه علامة يأس وفشل. فمن الممكن أن يكون المسيح عليه السلام قد رأى حمامة جلست قريبًا منه بعد أن خرج من الماء بعد أن عمَّده يوحنا، فظنّ أنها جاءت من السماء.

لا شك أن حادث بدء نزول الوحي على موسى عليه السلام حادث حقيقي حيث كلمه الله تعالى، ولكن لم يكشف له ذلك الكلام أي أسرار من العلم والعرفان، وليس فيه ما يُعَدّ رسالة فريدة للعالم. كل ما في الأمر أنه قيل لموسى أن يذهب إلى فرعون ويخلّص بني إسرائيل من عبوديته. وهذا أمرٌ مادي أو سياسي على الأكثر، ولكن ليس في هذا الكلام ما يكون بمثابة رسالة جديدة للعالم من الناحية الدينية أو الروحانية، ولم تنكشف فيه حقيقة جديدة من الحقائق الروحانية.

باختصار، إذا قارنا النبي ﷺ مع الأنبياء الآخرين من حيث حادث بدء نزول الوحي، فلا يسع أحدًا إنكار أن ما أوحي إليه ﷺ يمتاز عن الوحي لباقي الأنبياء جميعا، وأن الله تعالى لم يعبِّر لغيره من الأنبياء عن حبه ولطفه كما عبّر عنه له ﷺ.

الترتيب والترابط:

إن مضمون هذه السورة هو نفس مضمون السورة السابقة، بمعنى أن الله تعالى قد بيّن فيها ما بينه في ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾، ولكن بأسلوب جديد. فقد أشار الله تعالى في ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ إلى تسلسل الوحي، مبينًا أن الوحي مستمر منذ بدء العالم. لقد ظهر الوحي أولاً بواسطة آدم ثم نوح ثم موسى، والآن قد ظهر عن طريق القرآن الكريم. وهذا الموضوع نفسه قد بينه الله تعالى الآن في هذه السورة حيث قال ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.. أي لو تدبرتم في خلق الإنسان لوجدتم أنه كما يتطور -كفردٍ- مِن علقةٍ إلى مضغة حتى يخرج من بطن أمه بصورة إنسان كامل، كذلك قد تطور الإنسان -كجنس- فكان أولاً علقةً من الناحية الروحانية، ثم مضغة، ثم يتطور ويتطور إلى أن يصبح إنسانًا كاملاً في شكل محمد ﷺ. فقوله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ إشارةٌ إلى نفس قوله تعالى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾، حيث بيّن الله تعالى أننا كنا نريد منذ بدء الخليقة أن نطوّر الإنسان من الناحية الروحانية درجة درجة حتى نخلق الإنسان الكامل. وما دامت هذه خطتنا منذ بدء الخليقة، فكان لزاما أن تتحقق هذه الغاية المنشودة للإنسانية، وإلا أصبح خلق الإنسان عبثًا، وقيل أن الخطة التي بدأ الله خلْقَ الإنسان من أجلها لم تنجح -والعياذ بالله- فثبت أن هذه الآية تسلسلٌ لموضوع السورة السابقة، وتبيّن مضمونها بأسلوب جديد.

لعل أحدا يقول هنا: إن سورة العلق هي أولُ سورة نزولاً، فما معنى إثباتُ ربطها بسورة "التين" التي نزلت فيما بعد؟

والجواب أن للقرآن ترتيبين: ترتيبٌ نـــزولي، وبحسب هذا الترتيب كانت سورة العلق قبل سورة التين، وترتيب تدويني وهو لكل العصور، وبحسبه قد دُوّنت السور في المصحف، فلم تُدوَّن السور نظرًا إلى زمن نزولها بل بحسب مضامينها.